نشأة الطرق الصوفية و تدشين الزوايا

عبد الرحمن طالب *

قال الدكتور أحمد الشرباصي الأستاذ بجامعة الأزهر [1] "الطرق الصوفية منظمات دينية شعبية، يتكوّن كل منها من شيخ وطائفة من المريدين أو الأتباع، وكل شيخ يحاول قدر طاقته، أن يوجه مريديه وأتباعه إلى الطريق المستقيم..."، أمّا عن صلة التصوف بالإسلام، فبعض الباحثين يقول: إن التصوف إذا استقام أمره، كان سعيا إلى تحقيق مرتبة الإحسان عند المسلم، ومرتبة الإحسان هذه هي الّتي نبّه إليها النبي ﷺ في حديثه الصحيح: ***"الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك"*** [2].

أولا : نشأة الطرق الصوفية

يقول المؤرخ الكبير الشيخ عبد الرحمن الجيلالي الجزائري [1]: "لا زال الخلاف قائما بين الباحثين حول تاريخ نشأة الطرقية ونُظُمها السائرة بين

* *أستاذ الحديث النبوي، عضو المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر، عضو اللجنة الوطنية الاستشارية لحماية حقوق الإنسان.*

[1] *الدكتور أحمد الشرباصي: أستاذ بجامعة الأزهر، كتابه يسألونك في الدين والحياة، دار الجيل بيروت، بدون تاريخ الطبع، المجلد 2 صفحة 580.*

[2] *موسوعة الأحاديث النبوية، د/ طالب عبد الرحمن، مادة: الإبل، حديث رقم 70 نقلا من صحيح البخاري ك. الإيمان ب: 191 فتح الباري لابن حجر ج1 ص 114.*

[1] *الشيخ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1402هـ الجزء الثالث ص 250.*

أتباعها في الإسلام، ولاسيما المتخصصون منهم في دراسة التصوف الإسلامي، فمنهم من يرجع بذلك إلى ما قبل سنة 656هـ - 1258م".

ويظهر لمؤلف هذه الرسالة أن هذا التاريخ لا يعني نشأة الطرق الصوفية، بل يعني ظهور الطرق بعد تَبلورها وتحديد معالمها وأهدافها، وإلاّ فالنشأة وبروز النواة الأولى والشروع في تطبيق بعض أهدافها كان قبل ذلك بكثير، ولا يستبعد أن تكون بعض الملامح بدأت تلمع في عصر الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم كما هو الشأن بالنسبة لعلماء القراءات والمحدثين والمتكلمين والفقهاء والأصوليين وعلماء السير والقصاصين ورجال الفكر واللغة والجدل وغيرهم. ذلك أن رسول الله ﷺ بعثه الله برسالة شاملة تُغني المؤمن في دينه ودنياه من كل ما يحتاج إليه في أمور العقائد والعبادات والأحوال الشخصية والمعاملات والتربية على أوسع نطاق. كان ﷺ رسولا يوحى إليه ويتلقى القرآن من لَدُن حكيم عليم، وكان أستاذا للأساتذة الأوائل ومفتيا حكيما وقاضيا عدلا وقائد الجيوش وسائسها وكان شافعا ومُصلحا ومُربّيا. كان يهتم بتربية الأجسام والجوارح، والحواس والقلوب، والنفوس والأرواح بالأقوال والأفعال، والأحوال والهمّة والدعاء. ولمّا توفاه الله عز وجل ترك بعده، إرثا ثقيلا ينوء بالعصبة أولي القوة، لا يستطيع أن يحمله الفرد الواحد بمفرده مهما كان قويا، نشيطا، عالما ومخلصا، وفي ذلك الوقت بالذات، بدأت تتوزع المهام والمسؤوليات على أهلها.

وكانت الخلافة الإسلامية وقيادة الأمة في مقدمة الأولويات، ثم جَمع المصحف الكريم وتدوين السنة النبوية وكتابة السّير وظهور المدارس

الفقهية واللغوية والفكرية والطرق التربوية، لأن التربية لا يمكن أن تغيب عن الساحة إلاّ إذا لم يكن هناك أي إنسان؛ فهي مع الإنسان الواحد، ومع الاثنين والثلاثــة، ومع الملايين، فلا يمكن أن يكون هناك قُراء أو محدثون أو فقهاء أو لغويون أو رجال فكر، ولم تكن بينهم تربية سلوكية. فالتربية مِلك مشاع لكل الأفراد والجماعات، رجال ونساء، كبار وصغار، وهي حق وواجب في نفس الوقت، من حق الفرد أن يُطالب بالتربية ومن الواجب عليه أن يكون ذا تربية كريمة تنسجم مع المجتمع المسلم.

وإني إذْ أقول بأن النواة الأولى والخميرة التي نشأت منها الطرق الصوفية قديمة بقدم الإسلام، فإنما اعتمادي في هذا الرأي على نقطتين اثنتين:

- **المناهج السلوكية عند مشايخ الطرق**

عندما يتصفح العاقل المناهج السلوكية عند السادة الصوفية في تربية مريديهم، يجد جُلها مأخوذة من التربية النبوية، وقد ربّى بها الرسول ﷺ صحبه البررة رضوان الله عليهم، ثم ربى الصحابة بها وبأمثالها التابعين، وانتقلت التربية السلوكية عند السادة الصوفية كما يلي:

-العناية بكثرة الذكر

كثرة الأذكار بجميع أنواعها سِمة المهتمين بالتربية السلوكية، وعلى رأس الأذكار القرآن الكريم، أسماء الله الحسنى، والدعوات الجامعة، وكل هذا نجده في التربية النبوية منتشرا في كل كتب الأحاديث النبوية، وقد ألف الحافظ النووي كتابا خاصا لهذا

الغرض سماه: "**الأذكار**" جمع فيه ما تفرق في غيره من الكتب وهذه نماذج مختصرة في فضل الأذكار.

-الاهتمام بتلقين الذّكر:

يحرص شيوخ طرق التربية على الإذن في الذّكر ممن له الإذن بسنده إلى رسول الله ﷺ، لما فيه من الحفاظ على السّند، والحصول على سر وبركة الذّكر، واعتمدوا في هذا على الحديث التالي: عن يعلى بن شداد قال: حدثني أبو شداد بن أوس وعُبادة بن الصامت حاضر يصدقه قال: كنّا عند النبي ﷺ فقال: "***هل فيكم غريب؟*** يعني أهل الكتاب، فقلنا: *لا يا رسول الله*، فأمر بغلق الباب، وقال: "***ارفعوا أيديكم وقولوا: لا إله إلاّ الله***"، فرفعنا أيدينا ساعة، ثم وضع رسول الله ﷺ يده، ثم قال: "***الحمد لله الذي بعثني بهذه الكلمة، وأمرتني بها، ووعدتني عليها الجنة، وإنك لا تخلف الميعاد***، ثم قال: ***أبشروا فإن الله ﷻ قد غفر لكم***"[1]. من هذا الحديث الفعلي والقولي، رأى السادة الصوفية شرعية تلقين الذكر، لأن ذكر الهيللة كان معروفا عند الصحابة رضوان الله عليهم منذ أن أسلموا، ولمن شاء الرسول ﷺ أن يأذن لهم فيها بكيفية خاصة: رفع الأيدي لمدة زمنية والتلفظ بالكلمة المشرفة "**لا إله إلا الله**" ثم الحمد له والبشارة.

---

[1] *البناء البلوغ ج14 ص 213 وقال: أورده المنذري في الترغيب والترهيب، وقال: رواه أحمد بإسناد حسن، والطبري وغيره.*

- **تاريخ الشخصيات التي انتهجت هذا المنهج الشريف**

أما المسألة الثانية التي اعتمدت عليها في كون طرق التربية قديمة هي وجود جماعة من أكبر المربين، كانوا يعيشون في القرن الأول ومنهم:

1- خير التابعين السيد أُويس بن عامر القرني اليمني [37هـ 665م] أحد النساك العباد المقدمين[1]، وقد قال فيه الرسول ﷺ: "*إنّ من خير التابعين أُويسا القرني*".[2]

2- حبر الأمة في زمانه السيد الحسن البصري [21-110هـ 642-728م] شبّ في كنف الإمام علي كرم الله وجهه، كان يربي العلماء والأمراء، ويدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، ومن جملة من أرشدهم وربّاهم الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز، فإنه لما تولى الخلافة كتب إليه: "*لمشائخ الطرق التربوية أهداف سامية في التربية منها نشر الإسلام بالطرق التربوية السّلمية، والحفاظ عليه، والحفاظ عنه بالقوة إذا اقتضى الأمر، ودعت الضرورة إلى استعمال السلاح*".

يقول أمير البيان شكيب أرسلان في كتابه "حاضر العالم الإسلامي" قوله "*إن الإسلام نهض نهضته الثالثة من سنة 1750م إلى سنة 1901م أي بعد عهد الفتح وزمن انتشار الدين في أواسط القارة الإفريقية.* ثم قال: "*وقد نهض هذه المرة على أيدي مشايخ الطرق أو الإخوان... وفي القرن الثامن*

---

[1] *الاعلام للزركلي، ج1، ص 375.*

[2] *البناء: بلوغ الأماني ج 22، ص 445.*

عشر والتاسع عشر الميلادي حصلت نهضة جديدة عند أتباع الطريقتين، القادرية والشاذلية، وأُحدثت طريقتان هما: التجانية والسنوسية"[1]. هذه الطرق، وإن كثرت، فأهدافها واحدة أو كالواحدة، يقول أستاذنا الشيخ محمد الحافظ رحمه الله، إذا درسنا الخلاف بين أهل الطرق، وجدنا الخلاف بين الفقهاء أوسع منه و أبعد، فإن الخلاف بين الفقهاء حاصل في الحلال والحرام، والصحة والبطلان في أركان الدين من صلاة وصيام وحج وزكاة، وفي أبواب المعاملات، ومع هذا لا يضرهم الخلاف في دينهم حيث لم يقصدوا منازعة الشارع وإنما قصدوا المتابعة وبذلوا جهدهم... وتعال فابحث خلاف أهل الطرق، وستجد عقيدتهم واحدة، هي عين عقيدة المسلمين المستمسكين بالكتاب والسنة، مهما عبّروا عنها بأساليبهم الخاصة، وحلالهم واحد وحرامهم واحد وحُكمهم في ذلك حكم أهل المذاهب، وإذ ذاك ليس بينهم خلاف لا في الأصول ولا في الفروع، فما خلافهم إذاً أبسط خلاف. هذا يرى أن القرب في التقرب إلى الله أن يكثر في تلاوة كتاب الله تعالى، والآخر يرى أن أفضل ما في كتاب الله الكلمة المشرفة **"لا إله إلا الله"** فيجعلها أكثر عبادته، لأنها ذكر وقرآن في آن واحد، والآخر يقول إن رسول الله ﷺ قال ***"من صلى على النبي مرة صلى الله عليه بها عشرا"***، وعن سيدنا عبد الله بن عمرو بن

[1] *تعليقات شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الإسلامي، ج2، ص 398 وانظر ما قبلها وما بعدها.*

العاص رضي الله عنهما قال: *من صلى على النبي ﷺ مرة واحدة صلى الله عليه وملائكته سبعين صلاة.*[1]

ومن أهداف مشايخ الطرق التربوية بناء الزوايا ونشر العلم.

ثانيا: نشأة الزوايا

الزوايا هي جملة أمكنة التعلّم والتعبّد، ظهرت في وقت مبكر جدا، مع البعثة المحمدية، وتجلّت بوضوح في المدينة المنوّرة، عندما بُني المسجد الشريف، ذلكم المسجد الذي شارك في بنائه الرسول ﷺ، وكذا صحابته الكرام رضوان الله عليهم، وقد اتخذا هذا المسجد زمن ذاك مكانا للعبادة، ومعهدا للتعليم، ودارا للصلح والقضاء، وساحة تتجمع فيها الجيوش، ومنزلا لاستقبال السفراء والضيوف ودارا لأهل الصفة الذين لا أهل لهم ولا عيال، يظلون فيه نهارا مُتعلمين ومُعلمين، ويبيتون ليلهم فيه متهجّدين ومُعتكفين وإذا دعا داع للجهاد كانوا في الصف الأول على أتم الاستعداد. ثم بعد تكاثر المسلمين وتعداد حلقات التدريس، علت أصوات الأساتذة في المناقشة والاستفسار واتضحت حينها صُعوبة احتمال المسجد للصلاة والتدريس، ولكل هذه الخدمات الجليلة، ومن أجل ذلك أُنشئت المدارس والمعاهد للتعليم منفصلة عن المسجد، وخُصصت دُور للقضاء، وبنيت ثكنات خاصة للجيوش، وشُيدت إقامات وفنادق للضيوف، وزوايا للنّساك والمعتكفين.

---

[1] رواه الإمام أحمد بإسناد حسن.

تطور الزوايــا :

وبعد مرور الزمن تطورت هذه المكانة تطورا ملحوظا لصالح الدنيا والدين، والزوايا هي نفسها تطورت وأصبحت تقوم بخدمات متعددة جليلة يقصدها المسلمون من كل حدب وصوب، لأنهم وجدوا فيها مآرب جمّة، فهي مَضيفة للفضلاء، ومأوى لعابري سبيل، وكتّاب لحفظ القرآن الكريم وترديده وتدريسه، ومدرسة لتعليم الشريعة الإسلامية، ودار للصلح وعقد قران للزواج، ثم هي مكان الاعتكاف وذكر الله تعالى، وكأني بالزوايا، وبعد ما تخصصت أماكن التعلم والتعبد لخدمة واحدة، رجعت الزوايا إلى الحلة التي كان عليها المسجد النبوي الشريف حيث كان يقوم بأعمال متعددة، وبما أن المسجد النبوي هو الأصل الأصيل في كل أماكن التعبد والتعلم، فالرجوع إلى هذا الأصل فريضة ولا أقول فضيلة.

الزوايــا بالجزائر:

والزوايا في الجزائر كثيرة جدا، منها الزوايا التجانية، وقد ظهرت بظهور صاحبها الشيخ سيدي أحمد التجاني الجزائري المتوفى عام 1230هـ، وقد بُنيت في حياته مجموعة من الزوايا في جهات مختلفة، وكان يُشرف بنفسه على بعضها قيد حياته، وقد تكاثرت الزوايا التجانية عبر العالم بما يسر السامعين، ويثلج صدور المُحبّين، وكان الشيخ سيدي أحمد التجاني يتحرى أشد التّحري في المال الذي يُنفقه على بناء الزوايا، ويستعمل المال الحلال الذي لا شبهة فيه ويقول: أمرها قائم بالله، قال الله تعالى ﴿**ذلك**

ومن يُعظم حُرُمات الله فهو خير له عند ربّه﴾[1]، وكان يُعظم حُرمة الزوايا غاية التعظيم، ويجلّها غاية الإجلال، عملاً بقوله سبحانه وتعالى: *﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويُذكر فيها اسمه﴾* [2].

[1] الحج *30*.

[2] النور *36*.